القدرية في الأمثال الشعبية

القدرية... التسليم المطلق... غياب الحيلة... الجبرية... التواكل... العيش في مهب الريح...

هذه مصطلحات تشيع في المجتمعات، التي (توصف) بأنها متخلفة أو نامية أو دول الجنوب، أو غير ذلك من التسميات التي تقسم العالم إلى قسمين؛ قسم متحضر وقسم غير متحضر، ولنا تحفظ على كل هذه التسميات.

والسؤال الذي ربما يختلف فيه علماء الاجتماع - وهو سؤال البيضة والدجاجة -: هل التخلف هو الذي أفرز هذا النوع من الأمثال الشعبية والثقافة الشفوية المتداولة المبنية على جعل الفرد مؤمناً بأن دوره هو الانتظار لما ستكون عليه الأحوال، منفعلاً بدلاً من أن يكون فاعلاً، أم أن هذا النوع من الثقافة التسليمية الجبرية السلبية هو الذي جعل المجتمع ينحدر بنفسه وبمن فيه تدريجياً نحو الهاوية، ويصنف بأنه من المجتمعات المتخلفة؟

ربما يضيق بنا المقام هنا للدخول في سجال حول من هو الأول في تلك الحالة، وما يهمنا هو أن هذه الأمثال سواء أكانت سبباً أم نتيجة، يجب أن نتعامل معها بآلية مختلفة لمنعها من اكتساب صفة التداول التناسلي الذاتي، ووضع حد لتوريثها من جيل لآخر واستبدال ما هو خير منها للبلاد وللعباد بها.

هذه المصطلحات أقل ما يمكن قوله عنها أنها تخلط بين المشيئة الإلهية والمشيئة الإنسانية، وتجعل الإنسان أشبه بريشة في مهب الريح، وماهو إلا دمية بيد القدر قد قدر لها كل صغيرة وكبيرة في حياتها.

من هنا لا عجب أن نجد في الأمثال الشعبية ما يعكس هذا المفهوم؛ فغالب تلك الأمثال تعكس قدرية وجبرية قاهرة تخرج الإنسان من حيلته وتدفعه نحو

طريق ليس فيه خيار، مع أن كثيراً من العارفين في المجال الديني يقرون بأن الناس قد اختلط عليهم فهم المشيئة الإلهية والمشيئة الإنسانية.

صحيح أن الإنسان لم يخيَّر في ولادته ولم يخيَّر في محيطه ولا في أهله ولا في موته أو مرضه أو صفاته الجسدية، لكنه منذ لحظة الوعي واكتشاف الذات وانطلاقه في مسيرة حياته اليومية تُسلَّم له مفاتيح المشيئة ليكون صاحب القرار في كل ما يجري على لسانه من كلام، وفي كل ما تنطق به جوارحه من أعمال وأفعال، وإلا فما معنى أن نحاسب على ما أُجبرنا عليه؟.

فلو سلمنا بمنطق الجبر وما تعكسه الأمثال لوجدنا أننا قمنا بأمرين: الأول إخراج النفس من نطاق المسؤولية، وثانياً: إلباس الإله ما لم يقله عن نفسه، مع أن الموروث الديني قد كان واضحاً كل الوضوح في أن الإنسان مخير كل التخيير في قراراته، وأنه عند الحساب سيرى كيف أن القرار كان بين يديه.

لقد تراكم في هذه الأمثال سوء فهم للكون، وقصور وعي كامل، وعجز عن اللحاق بمتغيرات الحياة، فلاذ الإنسان - بسبب ضعفه - لتبريرات وتفسيرات تجعله في آخر النهار يعتقد بأنه قدم أفضل ما عنده، وأن القدر عليه أن ينصفه، فما هو الآن إلا مغلوب منساق منفعل لا حيلة له ولا أمر.

البحث في الأسباب

قبل أن نشير بإصبع الاتهام إلى الإنسان، لابد أن نشير إلى العوامل التي ساهمت في تعزيز وترسيخ هذه المفاهيم، سواء كانت تلك العوامل خارجية أم داخلية.

فبداية كان الاستعمار بأشكاله المختلفة المباشرة أو غير المباشرة، يمارس دوراً في خلق مثل هذه المفاهيم، ثم نشرها وتعزيزها بشكل متواصل عبر كل الأدوات المتاحة له. وما اهتمام الاستعمار في كثير من الأحيان بالتراث الشرقي وجزئياته إلا نوع من ترسيخ تلك المفاهيم الحاملة لتلك الأمثال، وربما كان هذا

جزءاً مما يشير إليه أصحاب نظرية المؤامرة، فضلاً عن أن الاستعمار يرى بأن هذه المفاهيم تخدمه لأنها تلغي العقل، ومن ثمَّ تلغي المحاكمة التي ميز الله بها البشر، وبالنتيجة تلغي الحرية، لأن العقل بطبعه الفطري الأصلي مبني على الحرية، باعتبار أن الله كفل للإنسان الحر أن يصل إليه بعقله وحريته.

أما الإعلام فيعمل، بشكل مقصود أو غير مقصود، بوسائله المباشرة أو غير المباشرة، في هذا الاتجاه، والقليل منه الذي يحاول التمحيص وإخراج الغث منها ليبقى السمين. إن هذه الأمثال قد مارست تأثيراً مباشراً، سواء في حياتنا أم في أجيالنا السابقة واللاحقة، والأغرب من ذلك أنها ترد على ألسنة من خاض عوالم الغرب، وفهم الكون باتساعه، وغاص في بحر المعارف والعلوم، وظن أنه طهر من لغط تلك الأمثال، وإذ به ما زال مقيداً بها، فما بالك بالباقين الذين لم يحظوا بما حظي به هؤلاء؟

فمثلاً عندما نقول لأبنائنا: "**إن شفت الأعمى طبُّو مانك أكرم من ربُّو**" (طبو أي ألق به أرضاً، وربو أي ربه).

أو: "**إن شفت الأعمى طبُّو وكسير عصاه مانك أكرم من يلِّي عماه**".

أو مثلاً: "**حط راسك بين الروس وقول يا قطَّاع الروس**".

فنحن لا ندرك خطورة ما نقول معتقدين أنه جزء من التراث، لكنه سم زعاف دس في الكلام من حيث لا ندري، وهو عقب أخيل في جسم هذا الجيل، وهو القيد الذي سيجعل من الأجيال القادمة أسطورة كأسطورة سيزيف، ذلك المحكوم عليه أبداً أن يدفع صخرة من سفح الجبل إلى قمته، وقبل أن يصل إلى القمة تسقط الصخرة إلى السفح فيعاود الكرَّة مرة أخرى وهكذا.

كذلك عندما يقال مثلاً: "**الطبع بالبدن ما بيغيرو غير القطن والكفن**" (المقصود بالقطن المستخدم في سد فتحات الميت)، وهو يعني القطعية بعدم التغيير والتطور، أو: "**يلي مكتوب على الجبين لازم تشوفو العين**" ويقصد كل شيء في الحياة وليس فقط ما هو فعلاً قدري كالموت والمرض وغيره.

كذلك في حال وقع خطأ ما أو اتخذ قرار ما خاطئ، فبدلاً من تدارك الأمر نقول: "**مي وانسفحت**"، كذلك دخلت القدرية في القرارات الحياتية الكبيرة كالزواج؛ فيقال مثلاً: "**إذا انكتبت بالسما انبلت الخطّابة بالعما**" (انبلت أي ابتليت ببلاء العمى، والخطّابة هي التي تقوم بوظيفة البحث للشاب عن الفتاة المناسبة بهدف الزواج). وأمثال أخرى تعبر تماماً عن غياب الحيلة مثل: "**يلي بيوقع من السما بتستلقيه الأرض**".

حتى دخلت القدرية في تربية الأولاد فقيل: "**أم عشرة دبَّرها وأم واحد حيَّرها**" (أي عشرة أبناء أو ابن واحد)، وفي العلاقات الإنسانية حيث قيل: "**لا حماية ولا ضرَّة لكن سقطة من عند الله**".

ودخلت أيضاً في التكوين الشخصي للإنسان، فقيل مثلاً: "**الله عارفو وناتفو**".

هل نحن مسيرون؟

إن بيت القصيد هنا هو ما يرد على ألسنة الناس عندما يصلون إلى مشارف نهاية الرحلة في هذه الحياة من أنهم ساروا في طريق قد قدر لهم، ولذلك فهم معذورون فيما فعلوا، فما وصلوا إليه اليوم هو تماماً ما كتب عليهم - كما يدَّعون - في اللوح المحفوظ، وربما هذه نقطة خلاف كبيرة؛ لأننا نعتقد يقين الاعتقاد بأن الإنسان اليوم هو نتاج قرارات الأمس، فإذا ما اتفقنا على هذه النقطة نستطيع عندها أن نداول الأحداث ونناقش الأيام ونمحص التواريخ لنعلم أين أحسنَّا وأين أسأنا في خطانا عبر حياتنا.

من المهم للإنسان أن يعلم أنه مرهون بالقرارات التي يتخذها، غير متناسين أن الظروف والأحوال والمناخات المختلفة التي يعيش كل منا فيها ستؤثر في طبيعة هذه القرارات وشكلها، ولكننا لا ندري أكنا قد تعاملنا معها بشكل عقلاني أم أننا تعاملنا معها بشكل تسليمي لأنها كانت أقوى منا.

على كل حال يمكننا أن نضرب مثلاً لإظهار فكرة القدرية والمشيئة الإلهية والمشيئة الإنسانية. فلنقل إننا جلسنا مع رجل قد بلغ الخمسين عاماً من عمره فقلنا له: ما رأيك بالحياة السابقة؟ فسيعتبر أن ما فعله في السنوات السابقة كان تماماً كما فعل الآخرون، وهو سباق نحو تحصيل الأفضل، والبحث عن لقمة العيش، والصراع من أجل تحقيق الأساسيات والبحث عن المكملات والتحسينات والحاجات التي لا يكتمل الإنسان إلا بها، كالتعليم والزواج وتحصيل المال ثم البيت والعائلة....إلخ، مما يشترك به أهل الأرض جميعاً لكونهم بشراً، فإن سئلنا هذا السؤال فمعظمنا سيجيب بأنه صرفها على تلك الأمور، ومن ثم فإن كل العمر الذي مضى كان أشبه بالمفعول به وليس بالفاعل. ولو سلَّمنا تسليماً مطلقاً بأننا في الخمسين سنة الماضية عاش معظمنا مضغوطاً مسيَّراً لتحصيل هذه الأدوات، فنسأل هنا: الآن وبعد أن استقر الإنسان وحصَّل ما أراد، هل يستطيع أن يضمن لنا أن السنوات القادمة، التي قد تكون أقل مما مضى، ستكون حاله فيها أفضل لأنه سيكون فاعلاً أكثر ومفعولاً به أقل، أي هل سيبدأ التخيير بدلاً من التسيير؟

هل سيصبح صاحب قراراته أو معظمها؟

هل سيضع نفسه رهينة لما ستكسب يداه ابتداء من هذه اللحظة؟

وبمعنى آخر؛ إذا اعتبرنا أن هذا الإنسان ولد الآن في عمر الخمسين، فهل سيبدأ رحلة العد التنازلي أو رحلة الرحيل أو مشوار بداية النهاية مزوداً بما سميناه التخيير والمسؤولية والفاعلية؟

لابد من الإشارة هنا إلى أن هناك حالات واختبارات صعبة خارجة عن الإرادة؛ كالبراكين والزلازل والفيضانات والأمراض والحروب وغيرها من الويلات التي لها وضعها الخاص ولها تعاملها الخاص، فهي لا شك قدر محتوم، مع أن بعض الناس يرى أنه حتى هذه الظواهر، للبشر يد فيها، بما أفسدوا في الأرض من تلوث وتغيير في الطبيعة التي تخضع لقوانين الحياة

التي أرساها الله منذ بداية الخلق، وأن هذه الظواهر هي استجابة لما فعلته يد الإنسان.

لذا، لنفكر لو أن مجتمعاتنا بدأت تبتعد عن القدرية وتؤمن بالتخيير والمسؤولية، ولنجعل حتى تلك البداية الجديدة بعد عمر معين، لنسمه عمر الاستقرار كالخمسين أو الأربعين أو ما شئتم، فهل يمكن أن يكون شكل مجتمعاتنا غير ما نراه عليه اليوم؟

هل ستكون نصائحنا لأجيالنا القادمة مشوبة بأقوال وأمثال وحكم وطرائف وقصص تقوي فيهم شعور المسؤولية والدور الإيجابي والمحاكمة العقلية والمنطق المتسائل والتفكير الما ورائي وتحليل الظواهر؟

أم نثبت على ما نحن عليه من لغط ونخرج أجيالاً مثل أجيالنا حبيسة لأمثال كبلتها بقدرية مزعومة فيغيب كما غبنا؟.

openkandil.com